العودة المتخيلة ـ الحاضر

إبراهيم نصر الله*

عن عودة لم تتوقف يوماً

النكبة مستمرة!

لكن العودة لم تتوقف قط.

تلك هي الحقيقة البسيطة، الواضحة كجرعة ماء، كتحليق طائر بين ضفتين، وتجاوز أغنية خط الحدود الذي نراه على الأرض سياجاً، دبابة، بندقية، جداراً، أو طائرة تترصد مَن يعبرون براري الشتات للقاء أنفسهم في البيت الذي سكنوه، والبحر الذي ابتلّوا بأزرقه، والفضاء الذي يرفع سرب طيور إلى أغانيه سبعين مرة في اليوم.

لم تتوقف العودة، أصبحت عودات.

قال لي:

كانت أمي تحلم بالعودة إلى بيت تسلل إليه أبي، وعاد: تسأليننني عن البيت؟ لم يزل على حاله كما هو. ويلومها، لماذا نسيت أن تغطي البئر، كان يمكن أن تقع البقرة فيه.

ـ لكنني لم أنسَ أن أضع ما يكفيها من ماء في حوضه.

عاد أبي بالبقرة، وأغلق البئر، لأنه يخشى أن تقع فيه بقرة ليست له.

في المرة الثانية بعد أشهر عاد وحصد القمح، سألته أمي عن البيت فقال: تسأليننني عن البيت؟ لم يزل على حاله كما تركناه. ويلومها، لماذا نسيت أن تسقي شجرة الخوخ؟

وتقول له أمي: لقد قلّمت كرْمة البيت وتركت ما يكفي من قمح فوق السطح للحَمَام.

ويلومها: كان يجب أن تضعي القمح في الحوش، لا على السطح، لأن حمام الجيران أكله.

أبي عاد بزوج حمام، وقال لأمي: اُنظري ليس فيه سوى الجلد والريش. كيف يمكن أن نأكله؟

أمي أمسكت زوج الحمام، حدقت في العيون الصغيرة، وأطلقته، فطار إلى الجهة الوحيدة التي يعرفها: بيتها خلف الحدود التي لا تُرى على الأرض، وتُرى في دبابة أو بندقية، أو عيون جنود لم يستوعبوا بعد أن تلك البلاد لن تكون لهم.

---

* روائي وكاتب فلسطيني.

غضب أبي، كان الأمر أصعب عليه هذه المرة، بسبب زوج الحمام. في المرة الثالثة عاد بثلاثة رؤوس من الماعز، إحداها كانت مصابة بطلق ناري، تسير ببطء. حين أوصلها إلى الغرفة الصغيرة التي منحتنا إياها عائلة طيبة، كي نستر أنفسنا في غربتنا العابرة، حين حل الحبل المحيط بأعناقها، حين تأملت العنزات أمي، وتأملت أمي أعينها الواسعة المرشوقة بحزن عميق، قالت لهن: سنعود، سنعود إلى بيتنا، لا تخفن.

في ظلمة ذلك الفجر الخفيفة، دارت أمي في الغرفة، ضائعة كانت، كأنها في صحراء لا جهات فيها ولا دليل. وحين خرجت، لم تكن العنزات الثلاث هناك.

كان الناس جائعين، بحيث لن يستغرب أبي اختفاء عنزاته، كان يدرك الأمر إلى درجة أنه لم يصرخ في وجه أمي: كيف أضعتِها؟ كان يمكن أن أدفع حياتي ثمناً لإحضارها.

لم يغضب.

.. وبكى كثيرا حين عاد رابعة، متسللاً، ووجد العنزات في البيت.

هكذا أدرك أبي أنك لا تعود إذا أعدت بعض ما هو لك، وحملتَه عبر الحدود. تعود إذا استطعت أن تعود إلى كل ما لا تستطيع حمْله: البيت والبئر، والحقل والبحر والسماء التي فوق البيت، والشمس؛ فهي هناك له وحده.

تأمّل السماء وأدرك أن تلك السماء في شتاته هي سماء الآخرين والشمس شمسهم.

إدراك أبي لذلك: عودة.

***

حين سمع قصائد مختلفة عن تلك التي سمعها من قبل، أحس بأنه يعود، قال لأمي أريد مفتاح البيت. ولم تَخف أمي أن يضيعه، أن يضيع مفتاح بيتها، فقد كانت ترى مفتاحاً أكبر على كتفه: بندقيته.

ناولته المفتاح.

قال: البعض يقول إن عودتنا قريبة، لكنني أقول إنها ليست بذلك القرب! وربما تكون بذلك القرب! لكنني أخشى أن نموت هنا، أنت وأنا. أفكر أن أذهب إلى هناك وأضع المفتاح تحت ذلك الحجر الكبير الذي تعرفينه أمام باب الحوش.

انتزعت أمي المفتاح من يده، أعادته إلى جيب ثوبها، قرب قلبها، وبعد أعوام طويلة قالت له، كأنها تكمل حوارها القديم معه: كنت أعتقد أنك أكثر ثقة ببندقيتك في ذلك اليوم. كان عليّ ألاّ أمنحك مفتاحاً لا تستطيع أن تستخدمه للدخول إلى بيتك، كان علي ألاّ أمنحك مفتاحاً تضعه تحت حجر.

بعد سنوات عرفت أمي أن عليها، حين تعود، أن تصنع باباً للمفتاح، وتبني للباب بيتاً، وأن يكون البيت أوسع، لأن عدد أولادها ازداد، لكنها لم تكن تكفّ عن إخراج المفتاح من صدرها ووضعه على مائدتنا الفقيرة، كلما جلسنا حول الطاولة الخشبية المربعة الخفيضة كي نأكل طعامنا.

كان الطعام ينتهي في كل مرة ولا ينتهي المفتاح. ترفعه برفق وتضعه في جيب ثوبها، جوار قلبها.

لم تقل أمي لأبي إن أفضل ما فعلَتْه أنها لم تعطه المفتاح ليضعه تحت ذلك الحجر، كانت تقول له: قرب قلبي له مكان أكثر دفئاً، لا يبرد فيه، ولا تحرقه حرارة الشمس في مخبأ يحرمه النور. أمي أضافت: أسوأ ما يحدث أن تحترق بشيء لا ترى نوره، أن تُحرق بالعتمة.

أمي لم تتوقف عن العودة، حتى وهي ترى بندقية زوجها منزوعة الطلقات، معلقة على الحائط كذكرى شاحبة لا تشبه توق المفاتيح إلى أبواب البيوت.

كل شيء كان يُسرق أمام عينيها، شباب زوجها، ملامحها في المرآة، خطواتها في الطريق إلى السوق، دمها في نشرة الأخبار، قمة الجبل التي تحولت إلى مستعمرة تُطل منها البنادق المصوّبة إلى مفتاحها.

أمي كانت تقول هذه البنادق ليست موجهة إلى أجسادنا، هذه موجهة إلى المفاتيح المجاورة لقلوبنا، وحين تقول لها امرأة: لكنني نسيت المفتاح هناك. تقول لها: أنت لم تنسيه. كيف؟ لقد نسيته! وتردّ أمي: كيف يمكن أن تقولي ذلك وأنت ما زلت تتذكرينه؟! المفتاح في ذاكرتك، هنا، وتلمس رأس الجارة بسبابتها، المفتاح في رؤوس وأعين صغارك. وتصمت، قبل أن تضيف: أتعرفين متى ستكون بنادقهم غير موجهة إلى رؤوسنا، إلى رؤوس صغارنا؟

ـ متى؟

ـ حين لا يعود هناك مكان لمفتاح بيتك قرب قلبك، أو في ذاكرتك. لكنهم، أقول لك بصراحة: لن يثقوا بنا، حتى لو حدث ذلك، سيقتلوننا أيضاً، فالأعداء لا يمكن أن يثقوا بذاكرتنا.

لم أكن أعرف من أين تأتي أمي بهذا الكلام، وكان أبي ينظر إلى بندقيته المعلقة كذكرى شاحبة على الحائط، ولا يملك جرأة أن يسألها ثانية: أريد المفتاح لأضعه أمام عتبة البيت، تحت الحجر الكبير، سيجده الأولاد، الذين كبروا، حين يعودون.

أبي أدرك أنه أخطأ في ذلك اليوم البعيد، أبي ضل طريق عودته في ذلك اليوم البعيد.

وقلت لصديقي:

وأنا أدركت أنني ضللتُ، أيضاً، في تلك الصحراء التي وجدت نفسي فيها وحيداً مع المرض في الغرفة المعتمة التي سكنتها.

كانت أمي، أعني أمي أنا، لا أمه، تقول لأبي مع تزايد أعداد أبنائها: سأسألك ذات يوم حين نعود، كيف استطاعت هذه الغرفة أن تتسع شعباً؟ أعني شعبنا الصغير.

وكان سفري محاولة لتوسيع تلك الغرفة.

أمي لم تتوقف عن الفخر بأنها أنجبت شعباً، حتى قبل أن ترى أحفادها، وأحفاد أحفادها.

في تلك الصحراء، كنت بعيداً عن غرفة الشعب تلك، لكنني كنت أحس في كل مرة أفتح فيها باب غرفتي، وأطل على الصحراء حولها، بأنني أصبحت أبعد، وحين أُقفل الباب، نهاراً وليلاً، بأنني أصبحت أكثر بُعداً.

أكياس القمح التي تقسم الغرفة الحجرية الطويلة إلى قسمين، كانت كبيرة عليّ، فقد كنت هناك أصغر من شعب، أصغر كثيراً، مع أنها أكثر اتساعاً من غرفة.

حين وصلَتْ إلى يدي ذات يوم رواية "رجال في الشمس" لغسان كنفاني، انتابني حس وحيد، بأنني لم أمت في ذلك الخزّان الذي مات فيه أبطال الرواية، لسبب ما، لا أعرفه، ربما لأنني رفضت أن أدخل الخزّان، لأنني أخاف عتمته، حرارته التي بلا نور، أن أحترق بعتمته؛ أحسست بأنني اجتزت الحدود، وسرت بعيداً، محاذراً ألاّ يغيب الخزّان، وما فيه عن عيني، وبأنني توقفت طويلاً حين كان رجال الحدود يمازحون أبا الخيزران، قائد الصهريج، ويسخرون منه، وكان في تلك اللحظة مشغولاً بشيء وحيد، أن يمضي بعيداً عنهم في تلك الظهيرة الملتهبة. كنت أفكر لماذا لم يختر أبو الخيزران وقتاً آخر غير وقت اللهيب، لماذا لم يتحرك في الليل؟ كان يمكن أن يصل في الفجر، صباحاً، وهناك كان يمكن أن ينجو أولئك القابعون في جوف العتمة.

ليس أبو الخيزران مَن صرخ في تلك الصحراء، بعد أن وجدهم ميتين: لماذا لم تدقّوا جدران الخزّان؟! أنا الذي صرختُ. لماذا يمكن أن يُمنح هذا المتفاخر شرف إطلاق صرخة حارقة كتلك؟!

في تلك الغرفة، كنت أحترق، وكان حرس الحدود وآباء الخيزران يحيطون بها، وكل مَن هم على شاكلتهم هناك، وللعجب، كانوا يتضاحكون مطمئنين، كما لو أنهم والحراس يعرفون أنني في الداخل، ويواصلون اللعبة، ويتراهنون: كم ساعة يمكن أن يصمد في جوف غرفته، كم ساعة سيحتمل العتمة، هل سيجرؤ على طرق الباب من الداخل، أو فتح الشبابيك؟ هل سيصرخ أولاً أم يطرق أولاً؟ هل سيموت؟

في ذلك الليل الصحراوي المقفل الذي تلعب فيه نجوم السماء كل الأدوار، إلاّ دور الدليل، حين وصل غسان، وقرأته للمرة الأولى، عدت.

كان غسان كنفاني هو الصرخة وصاحبها.

غسان كنفاني: عودة.

محمود درويش: عودة. سميح القاسم، إميل حبيبي، سميرة عزام، جبرا إبراهيم جبرا، إحسان عباس، إسماعيل شموط، معين بسيسو، ناجي العلي، محمود طه، عزيز عمورة، عارف العارف، أكرم زعيتر، محمد عزت دروزة، فدوى طوقان، توفيق زيّاد، سالم جبران، خليل السكاكيني، جورج حبش، أبو سلمى، أحمد دحبور، حسين البرغوثي، محمد القيسي، أنيس الصايغ، راشد حسين، إدوارد سعيد: عودة.

شهداء تل الزعتر، صموده: عودة. شهداء مجزرة الحرم الإبراهيمي، دماء شهداء صبرا وشاتيلا، بيروت، لينا النابلسي، محمد الدرة، فارس عُودِة: عودة. ماجد أبو شرار، يحيى عياش، نعيم خضر، وائل زعيتر، خليل الوزير، أبو علي مصطفى، علي أبو طوق، الانتفاضات، انكشاف الوجه القبيح للزعامات الفلسطينية: عودة.

وضوح كل ما سنعود إليه: عودة.

***

كانت أمي، وأعني: أمي أنا، حين تتحدث عن قريتها، لا تستخدم الكلمات بقدر ما تستخدم الصور، الصور التي نراها أمامنا كما لو أن تلك الأم جهاز عرض سينمائي. كنا نرى ذاكرتها، كل ما احتضنته تلك الذاكرة: الحقل، العصفور على الشباك، البرتقال في البيارة، الدخان الذي تصاعد من البيت المجاور، أول الربيع، الجار الذي ظلت بندقيته تطلق النار حتى بعد أن استشهد! إبريق الشاي الذي لم يتوقف عن الغليان حتى اليوم، البيت الذي أقسمت أنها رأته يتبعها، وأنه سار خطوات خلفها، شكها في عقل أبي، لأنه لم يرَ انتقال البيت من مكانه، ولم يلحظ اتساع المسافة التي باتت تفصله عن شجرة التوت خلفه، والحمام الذي كان يلتقط رزقه، الحمام الذي رأى ما رأته، فارتبك، قبل أن تنظر هي إلى البيت، وتطمئنه أن لا ضرورة لأن يخاف، لأنها ستعود.

كنا في حديثها نعود.

وكانت أم جاسر، التي أُحس بأنها كانت دائما جارتنا، أم جاسر القادمة من القرية المجاورة، ترينا تفاصيل المجزرة، ولا أقول تتحدث عنها:

خرجتُ مع الأولاد من النافذة الخلفية، سرت بجانب الحظيرة، كان أكثر ما يخيفني رؤيتهم لنا.

طلبتُ من الأولاد أن يسيروا في الكروم، بين الشجر، أشرتُ لهم: إلى السفح، وكان هناك أطفال ونساء وشيوخ يصعدونه. اِتبعوهم، قلت لهم، انتظروني في النبعة الفوقا، سألحق بكم. قلت لجاسر خذ أخويك الصغيرين واسبقني إلى هناك. رفض، قلت له سيقتلونك إن رأوك، وأبقيت سامي، معي. كان في الثالثة عشرة، لم يزل طفلاً، قلت لن يقتلوه، وأنا أعرف أنني أكذب على نفسي، لأنني رأيتهم يقتلون مَن هم أصغر منه، لكن، ماذا أفعل، ربما أحتاجه إلى طلب نجدة إن عثرتُ على أبو جاسر جريحاً. قلت لسامي، اِسمعني، اِسمعني مليح، لقد رأيتهم يطلقون النار على والدك، ورأيته يختفي، لا أظنه ابتعد، سيكون بحاجة إلى مساعدتنا.

نحو البيوت عُدنا، سمعت صوت أعضاء الكتائب اليهودية، كانوا يصرخون وهم يحاولون اقتلاع أحد الأبواب، باب محمد عباس:

ـ هل تريدون أن تموتوا داخل البيت؟ قال أحدهم، وأكمل آخر: أم خارجه؟

وضحكوا.

كان الباب قوياً، لم يستطيعوا تحطيمه. وضعوا قنبلة على عتبته، ابتعدوا، تناثر الباب، عادوا، ألقوا قنبلتين في الداخل، وواصلوا طريقهم.

كانت الضحايا حولي، في كل مكان، فتحتْ امرأة عينيها، حين سمعتني أطلب من سامي أن ينتبه، قالت: "مريم، أم جاسر؟! إلى أين؟ تعالي إلى هنا"، وأفسحَتْ لنا مكاناً إلى جانبها يكفي لقتيلين. عرفتها من صوتها: روْز؟! قالت: "لطخوا ملابسَكم ووجوهكم بالدم، بالتراب، بالدخان، لن ينجو من هذه المذبحة أحد غير القتلى، أمثالنا!" رفضتُ، ورأيتها تعود وتلتصق بأقرب ضحية لها، وهي تُلقي بيدها اليمنى على الجسد الذي فارقته الحياة كأنها تحميه من موت آخر. الجسد الذي كان جسد أخيها، والدها، لا أعرف؛ لا شيء يمحو الملامح كالدم عندما يغطيها.

إنني أراهم الآن، أمامي، أكثر ممّا أراكم.

وسمعتُ أصوات أعضاء الكتائب، لم أعرف من أي جهة تأتي. قلت لسامي اختبىء هنا، لا أريدك أن تغادر مكانك، سأحتاج إليك حين أعثر على والدك، وخفتُ عليه أكثر.

موسى العبد، قطعوه. كانوا على بعد خمسين متراً من مكاني الذي أختبىء فيه، وكانت ابنته ليلى تبكي، وتقول لهم: من شان اللـه أعطوني أبي.

عندما انتهوا من تقطيعه، أمسك أحد جنود الكتائب بواحدة من يدَي موسى، وقال لها: هذه حصتك منه، البقية لنا!

أمسكت الصغيرة يد أبيها، بدأوا بإطلاق النار حولها، هربتْ، لم تترك تلك اليد.

قالت لي، حين رأيتها هنا، لولا أن أبي أمسك بيدي وجرني إلى هذه القرية، ما كان يمكن أن أنجو يا خالتي.

وصلتُ إلى بيت أبي، كان أبي لم يزل هناك، عجوزاً، لم يكن يريد أن يخرج من البيت، أجبرته على الخروج وهو يصيح: وين الدنيا إللي راح تِسعْني إذا تركتْ بيتي؟

أوصلته إلى المكان الذي يختبئ فيه ابني وعدتُ أبحث عن أبو جاسر. أبو جاسر إللي عمره ما ضاع، ولا يمكن يضيع.

لم أجده، فرحتُ، قلتُ في نفسي لا بد من أن يكون ابتعد، نجا.

عدتُ، رأيت أعضاء الكتائب اليهودية ممسكين بسامي وأبي، صرختُ، ورحتُ أركض نحوهم. وقبل أن أصل، أخرجتُ ما في حزامي من مال، كل المال، ٢٠٠ جنيه فلسطيني، وقلت لهم: أتركوهم، وهذه لكم. مد قائدهم يده وأخذ المال، وقال لي: لكن هذا المال لا يكفي لإنقاذ اثنين، يكفي لإنقاذ واحد فقط، ودسّه في جيبه.

قال لهم أبي: اقتلوني أنا.

قال قائدهم: أنت لا تستحق الرصاصة التي تُطلق عليك. لكنه عاد وأضاف: بل تستحقها، ففي رأسك كثير من الذكريات التي لن أسمح لك بأن تحملها معك بعيداً.

وأطلق كل الرصاص الذي في رشاشه عليه.

وامتدتْ يد قائدهم إلى سامي، هجمتُ عليه، ضربني في منتصف جبيني، سقطتُ، وقبل أن أفتح عيني، كان سامي مقتولاً إلى جانبي.

سأل قائدهم مَن حوله:

– هل تعتقدون أننا تركنا وراءنا أي أحياء؟

– لا نظن ذلك، تقاطعت الجملة وقد قالها أكثر من واحد.

التفت قائدهم نحوي: سأتركِكِ لتعيشي وتتألمي، والأهم أن تخبري الجميع بأننا سنقتلهم كما قتلنا ابنك ووالدك إن فكروا بالعودة ثانية إلى هنا، أو إن تذكروا!

وابتعدوا..

تحسستُ جسد سامي، دفعته ليصحو، ليحيا من جديد، لم يصحُ؛ حتى رجاء الأم لا يكفي كي يستيقظ ابنها المقتول!

وسرتُ إلى أبي، تحسستُ جسده، رجوته أن يحيا؛ حتى رجاء الابنة لا يكفي كي يستيقظ أبوها المقتول!

وأعتمتِ الدنيا، سمعتُ صوت أقدام تتجه نحوي، خفتُ، التفتّ ورائي، لم يكن صعباً عليّ أن أعرف خطوات مَن كانت تلك الخطوات.

اقتربَتْ أكثر:

ـ روز؟!

ـ آه يا مريم، روز، إللي ظَلْ من روز! ورأت ابني على الأرض فقالت لي:

ـ ليش ما رضيتوا تموتوا معي؟

***

أم جاسر كانت تعيدني، وأنا أكتب عنها، وأكتب عن سواها "ظلال المفاتيح".

.. واقترب مني الشاب الصغير وقال لي: أتعرف، كنت دائماً متعاطفاً مع فلسطين، لكنني حين قرأت روايتك صرت أحبها. أحس بأنك أعدتني إلى هناك.

الفتاة التي لم تكن معه، فتاته، كتبت إليّ: كانت روايتك مثل آلة الزمن التي حملَتْني إلى فلسطين هناك، لأراها، أعيش كل ما فيها.

كنت أحب أن أقول لها أنني ذهبت إلى هناك لأرى جدي شاباً، وأبي طفلاً، وأمي طفلة، وأولد هناك وأكبر. كتابة الرواية كانت عودة، أيضاً، واستعرتُ ما قالته أمي عن أبيها الذي حضر عرس أمه وأبيه! وكيف كان له حقل فوق رأس نخلة، وكان يزرعه، سنة قمحاً، وسنة سمسماً. قلت للفتاة أنني ذهبت إلى هناك لأحضر عرس أبي وأمي، أيضاً. وقلت لها أنني أخبرت أمي بذلك، بعد زمن طويل، وانتظرتُ أن ترمقني بنظرة متشككة في عقلي، لكنها قالت لي: وشو الغريب في هيك مسألة، ما أبوي حضر عرس جدي وجدتي قبل ما يلتقوا، وقبل ما يتزوجوا؟!

أمي: عودة، أم جاسر: عودة.

وسألتني بديعة زيدان:

ـ كتبتَ عن فلسطين ماضياً وحاضراً وربما مستقبلاً، مع أنك لا تعيش فيها. أليست المعايشة شرطاً من شروط الإبداع؟ أم إن للمعايشة أكثر من معنى غير الإقامة؟ وهل الإقامة خارج فلسطين تمنح صاحبها مساحة أكبر للتخيل كما في "قناديل ملك الجليل" على سبيل المثال، التي لم تزرها قبل كتابتها؟ وفي الوقت نفسه هل هناك مساحة للتخيل في قضية واقعية وأحداث تاريخية؟ وهل يفيد الخيال فلسطين وقضيتها روائياً؟

وأجبتها: مَن يستطيع القول إنني لم أُقِمْ فيها ذات يوم؟ أقول هذا لأنني أفاجأ بقرّاء يسألونني كيف عرفت الطريق بكل تفاصيله، بين قريتنا والناصرة، أو بين طبرية وحطين؟

بعض مَن يسكنون في الداخل الفلسطيني البحري زاروا عكا بعد قراءتهم لـ "قناديل ملك الجليل"، فنظروا في وجوه بعضهم بعضاً وقالوا: إبراهيم يعرف عكا أكثر منا! هذه مسألة تدعو إلى دهشتهم ودهشتي أيضاً.

لا أظن أن المسألة قائمة في القدرة على التخيل، إنها أعقد من ذلك كثيراً، ولا هي قائمة حتى في تفاوت قدراتنا ككتاب في الكتابة.

سأقول لكِ شيئاً، حين كنت أكتب رواية "حرب الكلب الثانية"، التي هي عن المستقبل، وكنت أصف رائحة العفونة، كان الأوكسجين يتلاشى من غرفة الكتابة، فأجد نفسي أركض نحو النافذة وأفتحها، في عز البرد، كما نقول، لأتنفّس. الغريب أن الحالة نفسها أصابت عدداً من قارئاتي وقرّائي، وبعضهم كتبوا لي عن الركض إلى الشبابيك، وفتحها، كي يتنفسوا. كأنهم كانوا معي في الكتابة.

ثم إن الأمر له علاقة بسؤال أكبر، عن معايشة المكان ومعايشة الأشخاص، فبعضنا يعيش في المكان طوال عمره ولا يعرفه، ويعيش مع أشخاص ولا يعرفهم، وبعضنا يعرف المكان بمجرد المرور فيه، وبعضهم يعرفه وهو لم يره، كما يعرف البشر بمجرد أن يصافحهم. لا أتحدث عن شيء غيبي، بل عن إحساس عميق يمكن أن يتوافر لنا في لحظات ما، فنرى ونعرف، ونعيش كل ما اعتقدنا أننا لم نعرفه ولم نعشه.

في "قناديل ملك الجليل"، بنى ظاهر العمر دولة على الأرض، وعاش عمراً أطول من عمري، وكان عليّ أن أبني دولة على الورق ويراها القارىء وهي ترتفع حجراً حجراً، وكان عليّ أن أعيش خمسة وثمانين عاماً، وأعيش أعمار وأحداث عشرات الشخصيات في فلسطين ودمشق والقاهرة ولبنان وإستانبول. هي مسألة غريبة، لكن الكتابة وحدها هي مَن تجعلنا نصدقها، ونبكي خلال ذلك ونفرح وننتشي في نصر وننكسر في هزيمة، ونقع في الحب. هل هو الخيال وحده، بالتأكيد لا، مع أنه نعمة النعم التي حظيَ بها البشر.

حدث معي هذا حين كتبت ثلاثة كتب عن غزة؛ لم يعد أحد يصدقني إن قلت أنني لم أزُر غزة حتى اليوم، فأصبحت أختصر الأمر وأقول لقد عشت فيها! فما الذي يؤكد لي أنني لم أعش فيها، أو أنني لست هناك الآن؟

هل عشنا في فلسطين؟ أم إن فلسطين هي التي عاشت ولم تزل تعيش فينا، وإنها حين نُطرد منها، تتبعنا، كبيت أمي، وتنسل إلى داخلنا، ومنا إلى أولادنا وأحفادنا؟

***

أحيانا أحنّ إلى زيارة شخصية ما، في رواية كتبتها، كما أحنّ إلى زيارة صديق لي هناك، في الجليل، أو عكا، أو حيفا، ولا أحس بأنني بحاجة إلى مَن يدلني على البيت أبداً. ما زلت في كامل قواي العقلية، فكيف لا أهتدي؟! الشيخ حسن اللبدي كان قد فقد ذاكرته تماماً، ونسي أسماء أبنائه، لكنهم حين أخذوه إلى قريته، كفر اللبد، الممحوة، تذكّر كل شيء فيها. أم جاسر التي كتبتُ عنها "ظلال المفاتيح" مثله، فعلَتْ ما لم تستطع أن تفعله ذاكرة اللبدي.

أم جاسر: عودة.

الشيخ حسن اللبدي: عودة.

الفتاة وفتاها: عودة.

روايات وأشعار وكتب مثل: "فرس العائلة": عودة. "بحيرة وراء الريح"، "منازل القلب"، "الحاجة كرستينا"، "باب الشمس"، "العقرب الذي يتصبب عرقاً"، "وارث الشواهد"، "العشاق"، "دروب المنفى"، "الطنطورية"، "ظل الغيمة"، "مخمل"، "صباحات جنين"، "شهادات على القرن الفلسطيني الأول"، "ترانيم الغواية"، "عائد الميعاري يبيع المناقيش في تل الزعتر"، "أسباب رائعة للبكاء"، "حريق في مقبرة الدير"، "أحلام بالحرية"، "تبغ وزيتون"، "الثائرة"، "يا عنب الخليل"، "نابلس تمضي إلى البحر"، "كطير من القش يتبعني"، "أعناق الجياد النافرة"، "رياح عز الدين القسّام"، "رأيت الله في غزة"، "العودة من النبع الحالم"، "قصائد منقوشة على مسلّة الأشرفية"، "حب وأحصنة غريبة"، "الشارع الأصفر"، "قول يا طير"، "أطلس فلسطين"، "حيفا ـ الكلمة التي صارت مدينة"، "ألف يوم في زنزانة العزل الانفرادي"، "نكبة وبقاء"، "الجبل ضد البحر"، "أسرى بلا حراب": عودة.. عودة.

"عائد إلى حيفا"/المسلسل، و"عائد إلى حيفا"/الفيلم: عودة. "المخدوعون"، "ثلاثة آلاف ليلة"، "حيفا"، "الجنة الآن"، "جنين.. جنين"، "يد إلهية"، "ملح هذا البحر"، "أولاد آرنا"، "حكاية الجواهر الثلاث"، "اصطياد الأشباح"، "المطلوبون الـ ١٨"، "أحلام منكسرة"، "أنفاق غزة"، "دموع غزة"، "المتسللون"، "النكبة"، "التغريبة الفلسطينية": عودة.

جميع هذه الكتب والأفلام، وسواها، شكلت ذاكرة الوعي، بعد أن كان الجيل الأول قد تأسس على ذاكرة العين والحنين.

هذه الكتب والأفلام واللوحات كلها ذاكرة جديدة، وإدراك آخر لطريق العودة، طريق العودة الذي توّجه الشهيد بهاء عليان بسلسلة القراءة والقرّاء التي أحاطت مدينة القدس، وتوّجتها مسيرات العودة التي لم يجد الكيان الصهيوني وسيلة لوقف تدفقها وتحليق طائراتها الورقية في السماء، أفضل من المقاتلات والقصف الصاروخي.

خوف الصهيونيين من الطائرة الورقية: عودة.

أغنية "أنا يا أخي": عودة، "فدائي.. فدائي"، "موطني"، "منتصب القامة أمشي"، "أناديكم"، "هي هي يا سجاني"، "ياما مويل الهوى"، "نزلنا ع الشوارع"، "عازف الجيتار"، "يا نجمة الصبح"، "هدّي يا بحر هدي"، "حجار فوق حجار"، "أعيشك في المحل تيناً وزيتاً"، "يا طالعين"، "علّي الكوفية"، "وينه صهيلك يا فرس"، "يا فلسطينية والبندقاني رماكم"، "وين الملايين؟"، "يا ريم الغزلان"، "الوطن من لون الناس"، "اِسأل يا عالم علينا وعا بيروت"، "أنا العطشان ما ليش مَيّة إلا فلسطين": عودة.. عودة.

النجاحات في مجالات العلم، التعليم، الرياضة، وسواها: عودة.

أسماء البنات: حيفا، يافا، بيسان، عكا، فلسطين: عودة.

أسماء الدكاكين الصغيرة: القدس، اللد، صفد، الخليل، طبرية: عودة.

أماكن الميلاد التي يُصرّ الفلسطينيون على أن تسجَّل فوق شواهد قبورهم: عودة.

أثواب الفلسطينيات، وأعراسهن: عودة.

***

الفيلم القصير الذي أعدّته الفنانة سناء موسى: عودة ـ تُوجه سؤالاً واحداً إلى اللاجئين، ومنهم كبار يعرفون فلسطينهم جيداً، ومنهم صغار لم يروها بعد: ماذا ستفعل حين تعود إلى فلسطين؟

ـ بدي آكل حفنة من ترابها. تقول امرأة مسنة.
ـ بدي آكل حبة تين.
ـ أشوف البير إللي سمعت عنه كثير.
ـ راح أرجع مشي، (رجل في التسعين)
ـ حتى لو رجعت وسكنت في مغارة، راح أرجع.
ـ أعيش فيها وأموت فيها.
ـ من غير الرجوع إلها، ما راح أحتمل الوضع (طفلة في العاشرة).

***

كنت أغبط إميل حبيبي دائماً، هو الذي تحدث كثيراً عن شاطئ البحر واصطياد السمك، إلى درجة أنني كتبت أمنيتي تلك في قصيدة قصيرة:

يوماً ما سنجلس على شاطئ حيفا
ونُلقي بصناراتنا إلى الأعماق
لن نصطاد شيئاً
ولكننا سنكون فَرِحين!

***

النكبة مستمرة!
لكن العودة لم تتوقف قط..
فأنتِ، أنتَ، نحنُ: عودة. ■